مؤسسة الدراسات الفلسطينية
Institute for Palestine Studies
مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 15، العدد 57 (شتاء 2004)، ص 117
www.palestine-studies.org

مقهى الصعاليك
وإمارة البطالة المقدسية*

سليم تماري**

في أعقاب عودة خليل السكاكيني من نيويورك إلى القدس في خريف سنة 1908 لاحت فرصة لابتداع نوع جديد من النشاط الثقافي. وتمخض عن ذلك ظهور مقهى ذي طابع ثقافي تلتقي فيه شلة من رجال الفكر أطلقوا على أنفسهم اسم "حزب الصعاليك". وبالنسبة إلى خليل وأقرانه كان التوقيت ملائماً تماماً، إذ كانت الإدارة العثمانية أعلنت في حينه الدستور الجديد الذي دعا إلى تبني اللامركزية في الحكم، وتعهّد بمنح العرب حكماً ذاتياً في أجواء تميزت بحرية الصحافة والتجمع، الأمر الذي أثّر تأثيراً بالغاً في الحياة الاجتماعية في كل من سورية وفلسطين. وكان السكاكيني حينذاك في وضع مادي لا يحسد عليه، وكان كاهله مثقلاً بالديون. ومن أجل تغطية تكاليف دراسته عمل مدققاً لغوياً في صحيفتين مقدسيتين هما: "القدس" لصاحبها جرجي حبيب حنانيا، و"الأصمعي"، وهي صحيفة أدبية كانت صدرت للتو بإدارة عائلة العيسى في البلدة القديمة.(1) وسرعان ما انتقل الأخوان داود وعيسى إلى يافا سنة 1911 بغية إصدار صحيفة "فلسطين"، التي أصبحت لاحقاً أداة لمناصرة الحركة الوطنية والتصدي للإدارة العثمانية، ومن ثم للانتداب البريطاني.

يهدف هذا المقال إلى عرض بزوغ وأفول نجم المقهى الأدبي، الذي عرف باسم مقهى الصعاليك، وارتباطه بالسكاكيني وأقرانه خلال الحقبة العثمانية، بما في ذلك خلال الحرب العالمية الأولى وفور انتهائها. واتسم الطابع الاجتماعي للمقهى باختلاط فلسفة السكاكيني، التي تتناول فلسفة السرور، بالطابع متعدد الأطياف والجنسيات الذي خيم على أجواء القدس خلال الحرب وعقب انتهائها. وسأسعى لربط مقهى الصعاليك في سياق نشوء وتطور مقاه مشابهة في سورية العثمانية ومصر في فترات سابقة.■

---

* المصدر: *Jerusalem Quarterly File*, no. 19 (October 2003), pp. 23-36.

** أستاذ مشارك في علم الاجتماع في جامعة بيرزيت، ومدير مؤسسة الدراسات المقدسية (القدس).

(1) "كذا أنا يا دنيا، يوميات خليل السكاكيني"، أعدتها للنشر هالة السكاكيني (القدس: المطبعة التجارية، 1955)، ص 37.

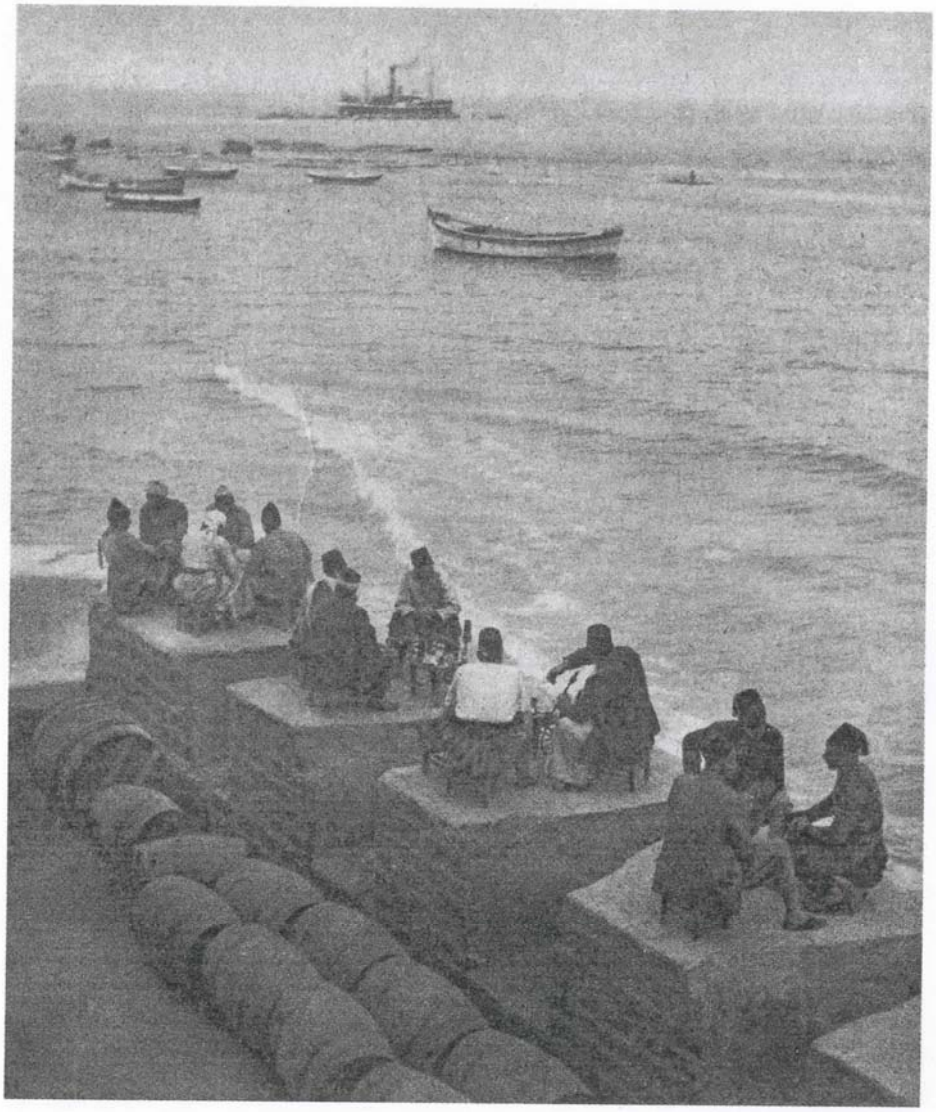

مقهى البحارة في يافا، سنة ١٩١٠.

المصدر: J. Benor-halter.

نوع جديد من الفضاء الشعبي

كانت القدس، شأنها شأن المدن العربية كافة، متوسطة الحجم في تلك الحقبة، توفر نوعين من الأمكنة لعقد الأنشطة الاجتماعية العامة التي تجمع ما بين الناس. فالاحتفالات العائلية، كالزواج والولادة والطهور والعماد وما شابه، كانت تقام في البيوت، بينما كانت الطقوس والشعائر ذات الطابع الديني تقام في أماكن عامة؛ ويتضمن ذلك صلوات التراويح، والاحتفالات الرمضانية، وسبت النور في أعقاب احتفالات الجمعة الحزينة، وموسم النبي موسى، وعيد المساخر لدى اليهود، واحتفالات الخضر. وعلى الرغم من مظهر هذه الاحتفالات الديني فإنها اتخذت طابعاً دنيوياً شعبياً مع مطلع القرن. وفي بعض الحالات تحول بعض الاحتفالات، مثل موسم النبي موسى، من احتفالات ذات طابع ديني في الأصل إلى احتفالات يطغى عليها الجانب الشعبي. ويمكن القول إن احتفالات النبي روبين، التي كانت تقام جنوبي مدينة يافا بمشاركة مقدسية، كانت فقدت كلياً طابعها الديني مع نهاية القرن التاسع عشر.

انتشرت المقاهي على الأرجح منذ القرن السادس عشر كبديل عربي – أو بالأحرى إسلامي – من الحانات؛ إذ باتت مراكز للقاءات الاجتماعية من دون تقديم المشروبات الروحية.[2] ويشير رالف هاتوكس، في هذا الصدد، إلى أن غياب تقليد توفر المطاعم مع بدايات فترة المعاصرة في مدن الشرق الأوسط (باستثناء الخانات التقليدية للتجار) جعل من الضرورة بمكان ظهور المقاهي لاستقبال الضيوف خارج حرمة البيوت. فالجو في البيوت كان يتسم بطابع المحافظة والتشدد. كما أن الفسحة والأجواء المتوفرة في المقهى تفسح المجال لعلاقات أكثر ألفة وأكثر رسمية. ويضيف هاتوكس قائلاً إن اللقاء في المقهى أحدث تغييراً ما في العلاقة بين المضيف والضيف، حتى لو كان ذلك شكلياً ومثّل خروجاً عن الأعراف،[3] الأمر الذي حمل في طياته ما اعتبر لاحقاً خروجاً عن المعهود، ومخاطر كامنة في ارتياد المقاهي. ولم يكن الخطر ناجماً عن القهوة كمشروب، والتي كانت تعرضت سابقاً لهجوم من بعض علماء الدين الذين اعتبروها مشروباً مخدراً،[4] وإنما عن الأجواء الترفيهية والترويحية التي سرعان ما وجدت سبيلها إلى المقاهي.

في أواخر الفترة العثمانية كانت المقاهي في المشرق العربي تقدم خدماتها في الغالب لعابري السبيل، وفي الأساس كان الرواد من ثلاثة أنواع.[5] فكان هناك، من ناحية، المقاهي المحيطة بالمباني العامة لدوائر تسجيل الأراضي والمحاكم ومراكز الشرطة، حيث يتوافد المراجعون. وغالباً ما كان يوجد في المقهى كاتب عدل ذو إلمام ودراية بتعبئة الطلبات والنماذج الرسمية لقاء أتعاب يعتاش منها. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ظهر نوع آخر من المقاهي تمحور حول محطات العربات والمركبات التي يتوافد إليها الركاب والمسافرون. وظهر نوع ثالث من المقاهي

---

(2) Ralph Hattox, *Coffee and Coffeehouses: The Origins of a Social-Beverage in the Medieval Near East* (Seattle: University of Washington Press, 1985), pp. 90-91.

(3) Ibid., p. 99.

(4) عبد المنعم شميس، "قهاوي الأدب والفن في القاهرة" (القاهرة: دار المعارف، 1991)، ص 9. راجع أيضاً: Hattox, op. cit., pp. 29-45.

(5) للتعرف على كيفية تطور المقاهي في بيروت، راجع: شوقي دويهي ومحمد أبو سمرة، "مقاهي بيروت بين محطات النقل العام ودموع المثقفين"، "النهار – الملحق الثقافي" (بيروت)، 1998/4/4.

حول المدن الساحلية لخدمة البحارة ووكلاء السفر وموظفي الجمارك والمكوس. ومن النوعين الأخيرين من المقاهي تبلورت أنشطة ذات طابع اقتصادي واجتماعي، بما في ذلك إيجاد فرص عمل، وخصوصاً للحمالين والعاملين في السفن وسكة الحديد وغيرهم. وعلاوة على ذلك أدت المقاهي، كنقطة اتصال، دوراً في إيصال الرسائل والطرود إلى أصحابها.

ونظراً إلى طبيعة المقهى، كمركز للقاءات العابرة والبعيدة عن العيون، فُسِح المجال أمام خدمات ترفيهية ومسلية متعددة. وساهم في ذلك توفر المشروبات الكحولية، وألعاب القمار المحدودة، من ألعاب الورق والدومينو والعروض الموسيقية، علماً بأن أول أجهزة الغرامافون والراديو وجدت طريقها إلى المقاهي. كما أصبحت مراكز لالتقاط الغانيات من بنات الهوى وترويج بيع واستهلاك التبغ والحشيشة.[6] ولكون المقاهي بعيدة عن العيون، إلى حد ما، فقد فُسِح المجال أمام رجال السياسة والفكر ممن وجدوا الوضع ملائماً لارتياد المقاهي من دون مواعيد مسبقة، واتخاذها محطات استراحة حين تدعو الحاجة إلى ذلك.[7] وفي المناطق المحيطة بالموانئ، مثل يافا والإسكندرية وبيروت، أثارت المقاهي شبهات أكثر في نظر المسؤولين الرسميين، حيث امتزج تعاطي "الممنوعات" (مثل الكحول ولاحقاً الحشيشة، التي كانت تثير تحفظات أقل في البداية) بالمعارضة السياسية والنقمة على الحكم.

وفي فلسطين شكل حي المنشية في يافا النقطة الإثنية الفاصلة بينها وبين تل أبيب، حيث انتشر كثير من المقاهي. وكان مقهى البغدادي، الواقع في شارع شبازي، من أبرزها ومحط أنظار شرطة الانتداب ونقطة رصد بالنسبة إليها:

> *ليس هنالك أدنى شك في أن هذا المقهى هو أبرز معالم شارع شبازي. فطوال ساعات النهار يزدحم المكان بأشخاص مريبين يجلسون للعب القمار بالورق والدومينو. وهنا أيضاً يفضلون تسجيل نتائج الألعاب بالطبشورة وعلى السبورة، مع أنه تبين أن كثيرين من اللاعبين يتبادلون دفعات النقود العائدة لألعاب القمار المحظورة. ويتجمع كثير من النسوة، وهن على الأرجح من بنات الهوى، حيث يتنقلن لإغواء الزبائن من طاولة إلى أُخرى.*[8]

وفي دراسة عن الأخلاق العامة في مدينة بيروت، مع مطلع القرن الجديد، يشير جينس هانسن إلى أن العقد الرابع من القرن التاسع عشر شكل نقطة التحول فيما يتعلق بالنظرة العامة إلى المقاهي وروادها. فلغاية منتصف القرن كانت المقاهي في معظمها داخل المنطقة المسورة حول الميناء، وكان يرتادها التجار والجنود والبحارة الذين أعطوها طابعاً مريباً وسمعة مشوبة بالخطر.[9]

---

(6) المصدر نفسه، ص 11.

(7) المصدر نفسه.

(8) نقلاً عن: Deborah Bernstein, "Contested Contact: Proximity and Social Control," unpublished paper delivered in the conference on "Mixed Towns." Jerusalem: Van Leer Institute, June 13, 2003.

أود أن أشكر الكاتبة على السماح لي بالاقتباس من هذه الورقة.

(9) Jens Hanssen, "Public Morality and Marginality in Fin-de-siecle Beirut," in *Outside In: On the Margins of the Middle East,* edited by Eugene Rogan, (London: I.B. Tauris, 2002),

وبدأت الأحوال تتغير مع تحسين العثمانيين لتخطيط المدن وإنارة الشوارع، وهو ما فسح المجال لانتقال المقاهي إلى خارج أسوار المدينة، وتحديداً إلى مناطق الزيتونة ورأس بيروت والكورنيش، حيث انتشرت المقاهي والمراكز الترفيهية بمبادرة من العائلات المرموقة، الأمر الذي أضفى عليها طابعاً يتسم بالاحترام.

ويرفض رالف هاتوكس، في معرض دراسته عن تاريخ المقاهي الاجتماعي، فكرة التمييز بين المقاهي "المحترمة" والمقاهي "غير المحترمة"، إذ يشير إلى أن الفارق الأساسي هو بين الحانات والمقاهي. فالحانات، في رأيه، مرتبطة بالقمار والسكر والعربدة، بينما "حلول عهد المقاهي كان بمثابة ظاهرة جديدة كلياً، إذ يرتادها أناس لا تشوب سمعتهم أية شائبة، يخرجون ليلاً لأغراض لا تقع ضمن دائرة التقوى."[10] أمّا في القاهرة وإستانبول فقد حظيت المقاهي العامة بجذور أقدم وأعرق، إذ ذكر الجبرتي وجود حانات ومقاه في القاهرة تقدم النبيذ، في أواخر القرن الثامن عشر – أي قبل شن الحملة الفرنسية. وفي الأمسيات الرمضانية كانت المقاهي تشكل مراكز للترويح عن النفس وتدخين النرجيلة. وما منح هذه المقاهي مكانة في القاهرة، وكذلك في إستانبول، ارتياد علماء الأزهر والأئمة لمقاهيهم المفضلة.[11]

ولعل الفارق الرئيسي في الحقبة العثمانية المتأخرة تمثّل بين المقاهي الشعبية والمقاهي الإفرنجية الحديثة، التي أخذت تستضيف النسوة والرواد من كل حدب وصوب. ويشير عبد المنعم شميس إلى أن مقاهي العوالم أخذت تنتشر في القاهرة قبل الحملة الفرنسية وخلالها، وسرعان ما انتقلت في اتجاه الإسكندرية وبيروت ويافا.[12] وظهر اختلاف آخر بين مقاهي العوالم التي كانت تقدم عروض الرقص الشرقي بشكل مقبول اجتماعياً، وبين مقاهي الغوازي حيث كانت العروض ذات طابع سوقي لخدمة المجموعات الدنيا من الناس.[13] ويبدو أن المقاهي الأدبية كانت امتداداً لتراث الحكواتية ممن كانوا يسردون روايات وملاحم شعبية. ويشير واصف جوهرية إلى كثير من هذه المقاهي التي كانت موجودة في البلدة القديمة من القدس خلال فترة صباه (1904 – 1910)، حيث كانت تُسرد قصص عنترة بن شداد وروايات أبو زيد الهلالي.

وعلى الأرجح فإن تراجع دور الحكواتي كان ناجماً عن انتشار الكتابة واختراع المذياع والغرامافون، اللذين سرعان ما وجدا طريقهما إلى زاوية مرموقة في المقاهي الشعبية. ومن الواضح أن المقاهي الأدبية في القاهرة وبيروت ويافا كانت مراكز أدبية يرتادها الصحافيون والمحررون للقاء أطراف مصادر المعلومات، وتبادل الآراء في مختلف الشؤون، وتتبع المستجدات على أكثر من صعيد.[14] وانضم إليهم في هذه المقاهي الشعراء، بمختلف تخصصاتهم، ولاحقاً كتّاب النصوص المسرحية والسينمائية.[15]

---

pp. 190-191.

(10) Hattox, op. cit., p. 10.

(11) شميس، مصدر سبق ذكره، ص 14.

(12) المصدر نفسه، ص 28.

(13) المصدر نفسه، ص 30.

(14) المصدر نفسه، ص 102 – 106.

(15) المصدر نفسه، ص 107 – 109.

بطبيعة الحال كانت درجة تنوع المقاهي في فلسطين أقل شأناً مما كان الوضع عليه في مصر، إلاّ إنها سارت على النمط نفسه إلى حد بعيد. وفي إثر إعلان الدستور سنة 1908، الذي ترافق مع إطلاق العنان لحرية الصحافة، شهدت كل من يافا والقدس انتشاراً كبيراً للصحف الصادرة. وفي المخيّلة العامة حدث تشابك بين المقاهي العامة والصحف. فخلال أعوام الحرب الكونية الأولى بات من الاعتيادي لأحد "القراء" أن يتولى عملية قراءة التعليق السياسي وغيره من الأخبار الواردة في الصحف وسط المقهى. وفي دراسة حديثة للمؤرخ عامي أيالون عن انتشار معرفة القراءة والكتابة في فلسطين، يظهر جلياً دور المقاهي العامة والعلاقة الوثيقة بين الجانبين. ويشير الكاتب إلى أن القهوة والشاي قاما بدور "محفز" على المطالعة والمناقشة، علاوة على أن كثيرين من أصحاب المقاهي أخذوا يستدرجون الزبائن من خلال زيادة عدد الصحف والمجلات المتوفرة للعامة من الرواد. وفي إساتنبول نشأت ظاهرة توفر غرفة خاصة للمطالعة في المقاهي العامة تحت اسم "قراءات خانه".[16] ويشير جبور الدويهي إلى أن أكثر المقاهي شعبية خلال حقبة التنظيمات العثمانية في توفير الصحف والمجلات للرواد، كان مقهى سيرافيم ومقهى سيفاناكي.[17] وفي فلسطين كان لغرفة المطالعة بعد آخر تمثل في بث الدعاية السياسية:

> *عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى باتت عملية قراءة الصحف في المقاهي أمراً شائعاً، وترسخ ذلك التقليد خلال احتدام المعارك، وكان مصدراً أساسياً لمعرفة ما يدور ميدانياً على خطوط الجبهات. ويتذكر الياس حماتي، الذي كان مراهقاً في تلك الآونة ويعمل في قهوة البحر في عكا، مباشرة قبل اندلاع الحرب، بأن المقهى كان "نقطة تجمع للمتعلمين ممن كانوا يطالعون صحيفة 'فلسطين'." واستعان الجيش البريطاني المحتل بهذه المقاهي لبثّ الدعاية، ووصل به الأمر إلى فتح مقاه جديدة خصيصاً لهذا الغرض حيث كان يقوم أحد الضباط بتعميم "جميع البرقيات والصحف".*[18]

المقاهي العثمانية في القدس

بما أن المقاهي لم تدّع كونها موقعاً للتبادل التجاري، أو للقيام بشعائر دينية، فإنها كانت مسرحاً للتفاعل الاجتماعي والترويح عن الذات وتمضية الوقت. وبعكس المطعم، الذي كان ظاهرة جديدة في فلسطين خارج إطار خانات التجار، فإن المقاهي لم تقم بدور ذي منفعة حيوية، كتناول الطعام، وإنما كانت لمجرد المتعة الاجتماعية المحضة. ولعل الرديف المشابه الذي حظي به أبناء العائلات الميسورة في القدس العثمانية تمثل في "الأوضة" التي كان يتمتع فيها العازبون منهم

---

(16) Amy Ayalon, *Reading Palestine: Texts and Audience, 1900-1948*, forthcoming.
انظر أيضاً:
Amy Ayalon, "Modern Texts and their Readers in Late Ottoman Palestine," *Middle East Studies*, vol. 39, no. 4 (October 2002), pp. 17-40.

(17) دويهي وأبو سمرة، مصدر سبق ذكره، ص 13.

(18) Ayalon, *Reading Palestine*, op. cit.

حيث يلبون حاجاتهم قبل الزواج.[19]

ويتطرق واصف جوهرية، في مذكراته، إلى عدد من المقاهي وبيوت الشاي التي انتشرت بصورة غير مسبوقة في القدس وضواحيها، في الفترة ما بين إعلان الثورة الدستورية سنة 1908 وأعوام ما قبل الحرب. ومن أبرز المقاهي الحديثة التي كان يرتادها يذكر:

- مقهى السرايا الكائن في سوق العطارين، والمطل على عقبة التكية. وتحيط بهذا المقهى شجرة توت ضخمة تلقي بظلالها لتحمي المراجعين من العامة ممن ينتظرون دورهم لإنجاز معاملات لدى دائرة العدلية من تسجيل للأراضي والنفوس. وبجانب المقهى خارج الباحة كان هنالك ما يسمى القفص، حيث كان يحتجز المشتبه فيهم فترة موقتة قبل استكمال إجراءات الإدانة.[20] وكان رواد هذا المقهى، في أغلبيتهم، من الأقرباء الذين كانوا ينتظرون الإفراج عن ذويهم من المحتجزين.
- مقهى قالونيا الذي يديره فروسو زهران، ويرتاده ضباط عثمانيون، مع توفر غرفة للقمار في القسم الخلفي.[21]
- مقهى المختار، وكان في الأساس على سطح مصرف كريديت ليوني مباشرة خارج باب الخليل. وهذا هو مقهى الصعاليك الأصلي قبل قيام الكولونيل ستورز بإصدار الأوامر لهدم المباني الملاصقة لباب الخليل في العشرينات.
- مقهى المنشية، وهو تابع للبلدية ويقع بمحاذاة عين جريشة. وكان هذا المقهى يطرح للتأجير على أساس التضمين مرتين كل عام. وأشرف على إدارته جريس جوهرية اعتباراً من سنة 1915 حتى وفاته سنة 1918.[22]
- مقهى جوهرية، وقد افتتحه خليل جوهرية في سنة 1918، وكان يقدم العرق والمزّة اللبنانية مع الماء المثلج (بفضل استحداث مد الكهرباء في المدينة). ونلحظ هنا، كما حدث في أماكن أُخرى، البدء بتقديم وجبات خفيفة بدل الاكتفاء بخدمات المقهى العادية. وكان هذا المكان على مقربة من المسكوبية في شارع يافا، وتمت استضافة كثير من المطربين والموسيقيين، أمثال محمد العاشق وزكي مراد، بالإضافة إلى عروض فنية ليلية ظهرت فيها بديعة مصابني وزوجها نجيب الريحاني.[23]

بعد عدة أعوام وصف نجاتي صدقي، الكاتب المقدسي الاشتراكي، والذي أصبح لاحقاً ناشطاً شيوعياً، التغيير الجذري الذي طرأ على مقهى البريد الذي كان يمتلكه يهودي من أصل روسي خلف بنك باركليز قرب باب الخليل، في أعقاب الحرب:

---

(19) راجع: سليم تماري وعصام نصار (محرران)، "القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية: الكتاب الأول من مذكرات الموسيقي واصف جوهرية 1904 – 1917" (القدس: مؤسسة الدراسات المقدسية، 2003)، ص 216.

(20) المصدر نفسه، ص 157.

(21) المصدر نفسه، ص 224.

(22) المصدر نفسه، ص 21.

(23) Salim Tamari, "Jerusalem's Ottoman Modernity: The Times and Lives of Wasif Jawhariyyeh," *Jerusalem Quarterly File*, no. 9 (Summer 2000), pp. 20-21.

كنا نرتاد مقهى صغيراً يقع خلف بنك باركليس اليوم، صاحبه يهودي روسي ضخم الجسم، طويل القامة يرتدي بنطلوناً أبيض، وقميصاً أسود، له فتحة وأزرار من جهة كتفه اليسرى، يحلق رأسه بالموسى بقصد التبريد في فصل الصيف، وله لحية مكورة وشاربان مهذبان على الطريقة الروسية [....] ففي هذا المقهى الصغير كنا نجتمع عصر كل يوم، ونتعرف إلى رواده من الأجانب [....]

وتدور في هذا الوسط مناقشات في مواضيع شتى تتعلق بهجرة اليهود، ونضال العرب، وعصيان جابوتنسكي، الصهيوني الروسي المتطرف، ومعركة "تل حاي" في شمال فلسطين، ومقتل الضابط اليهودي يوسف ترومبلدور في تلك المعركة، وثورة يافا، والاصطدام المسلح بين اليهود والعرب في القدس بعد قيام جابوتنسكي بزحفه إلى حائط المبكى في القدس القديمة.. وكانت تتخلل هذه المناقشات أبحاث عقائدية يترجمها لنا بعض المهاجرين الذين يتحدثون بالعربية الدارجة، عرفنا منها أن الاشتراكية تسعى إلى بسط سلطانها عن طريق المجالس النيابية، وأن الفوضوية لا تعترف بأي نوع من الحكومات وترمي إلى إدارة شؤون الناس بواسطة النقابات، وأن البلشفية (ولم يكن العرب قد استعملوا اصطلاح الشيوعية بعد) أقامت في روسيا حكماً اشتراكياً عن طريق الانقلاب والجيش الأحمر.[24]

ومع أن المقاهي أخذت في الانتشار مع بداية القرن في أنحاء المدينة كلها، إلاّ إن حركة الإبداع الفكري والفني، ذات الطابع المتنوع، تركزت في المقاهي الواقعة على حافة مركز المدينة، كالمصرارة وباب الخليل ومنطقة المسكوبية. وسرعان ما ظهرت في هذه المناطق سلسلة من المقاهي والحانات ودور الكباريه، حيث صدحت الموسيقى بصحبة المشروبات الكحولية. ومن المؤكد أن الطابع الإثني لرواد هذه الحانات، وكونها تقع في أماكن مختلطة أصلاً، فسحا المجال لاجتماع الموسيقى والمشروبات الكحولية. وفي الواقع كانت هذه الحانات نقاط التقاطع التي يتفاعل فيها سكان المدينة، من مسيحيين ومسلمين ويهود وأرمن. وبالنتيجة تم إيجاد فضاء مشترك من الناحيتين الطائفية والقومية، مع تحييد المحرمات الاجتماعية وتجاوزها. وتعززت هذه الوتيرة من خلال الحجاج الوافدين من روسيا أو اليونان أو البلقان، للمشاركة في احتفالات عيد الفصح. ومعهم وصلت الخمور بأسعار زهيدة، إن كان ذلك في شكل الفودكا الروسية، أو البراندي القبرصي، أو الكونياك اليوناني. ولم يقصّر كثيرون من أبناء البلد في تخطي وتجاوز القيود الاجتماعية الصارمة في الحياة العامة في القدس.

قهوة الصعاليك

(24) حنا أبو حنا (محرر)، "مذكرات نجاتي صدقي" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2002)، ص 19 – 20.

من أشهر مقاهي القدس، خلال هذه الفترة، قهوة المختار التي أعاد خليل السكاكيني وحلقته من رجال الفكر تسميتها قهوة الصعاليك. وقام بافتتاح هذه القهوة عيسى ميشيل الطبة، مختار طائفة الروم الأورثوذكس في المدينة، سنة 1918. في البداية كان المقهى محطة استراحة للحجاج الأورثوذكس الوافدين من اليونان وقبرص وروسيا للمشاركة في احتفالات عيد الفصح. كما كان مركزاً للمراجعة والاستشارة لأبناء الطائفة في البلدة القديمة. وأورد جميل الطبة، ابن المختار، في مذكراته عن أصول القهوة ما يلي:

كان لدى والدي مقهى محاذ لباب الخليل على مقربة من السور الجنوبي للمدينة. وكان المقهى يعرف بالمحل حيث كان يلتقي فيه بعض أبرز المتعلمين وأصحاب النكتة من الظرفاء. وهؤلاء الرجال في منتصف العمر وغيرهم من كبار السن من القدس الكبرى كانوا يشعرون في المقهى بالراحة وكأنهم في بيوتهم. وكانت البلدة القديمة تمنحهم شعور الارتباط بماضيهم وثقافتهم وتراثهم. وما زالت ترن في أذني أحاديثهم بينما يلفهم الدخان المتصاعد من زجاجات النرجيلة وهم يحتسون العرق اللبناني المشهور والذي يسمونه في المحل حليب السباع. وترك الجو في المقهى إمكان استخدام الألفاظ البذيئة أمراً وارداً بعيداً عن أجواء الثورة الثقافية الجارية في الخارج والتي كانت بصدد تغيير طبيعة القدس وفلسطين بصورة لا رجعة فيها.[25]

المختار عيسى الطبة، صاحب مقهى الصعاليك، في العشرينات. [ربطة عنق مقلّمة وشاربان شائبان]
المصدر: أرشيف عائلة الطبة.

كان السكاكيني قد عاد لتوه من الغربة في دمشق، بعد أن أُطلق من السجن العثماني بفضل دخول جيش الملك فيصل المدينة. وفي أعقاب انهيار حكومة فيصل العربية في سورية عاد أدراجه إلى القدس لمواصلة عمله الصحافي. وخلال هذه الفترة كان يكتب بانتظام في مجلتي "المقتطف" و"الهلال" الصادرتين في القاهرة، وكذلك في مجلة "السياسة الأسبوعية" الصادرة في القدس.[26]

وكان عيسى الطبة، صاحب المقهى الأصلي، يراسل السكاكيني خلال فترة إقامته بنيويورك، والتقى الاثنان في حركة السعي لتعريب الكنيسة الأورثوذكسية. وتجدر الإشارة إلى أن الطبة كان شغوفاً بالكتابة، وشاطر السكاكيني اهتماماته الأدبية. وظهر اسم الطبة في لائحة تتضمن الصحف العثمانية باعتباره صاحب ومحرر صحيفة تكتب باليد باسم "الأحلام" بدأت بالصدور في

(25) Jamil Issa Tubbeh, *Day of the Long Night: A Palestinian Refugee Remembers the Nakba* (Jefferson, North Carolina: McFarland and Company, 1998), p. 35.

(26) يوسف أديب حداد، "خليل السكاكيني: حياته وآثاره" (الناصرة: دار الصوت، 1958)، ص 68.

أيلول/ سبتمبر 1908.[27] وفور انتهاء الحرب، حين أصبح الطبة مختاراً للطائفة الأورثوذكسية في البلدة القديمة، انتقل المقهى إلى موقعه الحالي داخل باب الخليل بالقرب من فندق إمبريال. وسرعان ما تحول المكان إلى نقطة لقاء ومرجع للزوار الأورثوذكس الوافدين للحج خلال عيد الفصح، وخصوصاً من روسيا والبلقان واليونان وقبرص والدول العربية. وجرت العادة أن تنطلق مسيرة سبت النور "الشوباش" من قهوة المختار، الذي كان يتصدر المسيرة.[28] وتضمنت مهمات المختار تمثيل مصالح الطائفة، والتدخل في الشؤون اليومية ذات العلاقة بالبطريركية اليونانية. ونتيجة الاهتمام المشترك بالشؤون الأدبية وتعريب الكنيسة الأورثوذكسية، كان من البديهي أن يتم التقارب بين السكاكيني والطبة وقهوته، الأمر الذي أدى إلى عقد اجتماعات أدبية دورية عرفت بـ "حلقة الأربعاء". ومن جملة من كانوا يحضرون هذه الحلقة: عادل جبر؛ إسعاف النشاشيبي؛ عيسى العيسى (صاحب جريدة "فلسطين")؛ داود العيسى (محرر جريدة "فلسطين")؛ إسحق موسى الحسيني؛ نخلة زريق. ومن خارج البلد، كان هناك أحمد زكي باشا، وخليل مطران.[29] وكانت هذه المجموعة هي النواة التي شكلت "حزب الصعاليك".

فلسفة السرور وأيديولوجيا "حزب الصعاليك"

يقدم السكاكيني في مذكراته شرحاً عن أصول حزبه، مشيراً إلى أنه

> *خلال السنوات الأولى من الحكم الفرنسي لسورية قام الاحتلال بطرد عدد من الشخصيات الوطنية إلى فلسطين. من جملة هؤلاء الكاتب المعروف علي ناصر الدين الذي انضم إلى مجموعة الصعاليك. وعندما سمح له أخيراً بالعودة إلى دمشق طلب من صعاليك فلسطين أن يحرروا له تكليفاً ومصدقاً يتيح له تمثيلهم في سورية. أصدرنا له فرماناً حول المسألة وبطريقة ما وقع هذا الفرمان بيد أحد الصحفيين فقامت جريدة "فلسطين" بنشره. وحينما وصل ناصر الدين إلى بيروت تم اعتقاله على الفور وجرى نفيه هذه المرة إلى جزيرة أرواد بعد توفر الإثبات القاطع أنه ينتمي إلى "حزب الصعاليك". وحاولنا التدخل لصالحه ولكن دون جدوى.*[30]

ظهر "حزب الصعاليك" على الملأ سنة 1921، حين أراد نادي بيت لحم تكريم السكاكيني تقديراً لمساهمته التربوية والأدبية. ورداً على ذلك قام السكاكيني بإرسال اعتذار باعتبار "أن الأصول المتبعة لدى حزب الصعاليك الذي أحظى بشرف الانتساب إليه خلال السنين الثلاث الماضية تحظر على أعضائه تقبل إجراءات تكريمية." واستطرد قائلاً: "إنهم يصرون على الاحتفال بخصالي إلاّ إنني نظرت دونما جدوى إلى نفسي ولم أجد بها ما يستحق الاحتفال والتكريم."[31]

---

(27) ورد في: تماري ونصار (محرران)، مصدر سبق ذكره، ملحق رقم 6، ص 265.
(28) إبراهيم قندلفت، "تعال معي إلى مقهى الصعاليك"، "البلاد"، 30/10/1960.
(29) حداد، مصدر سبق ذكره، ص 68.
(30) خليل السكاكيني، "ما تيسّر" (القدس: المطبعة العصرية، 1943)، المجلد الأول، ص 82.
(31) حداد، مصدر سبق ذكره، ص 71.

الأمين العام لحزب الصعاليك، خليل السكاكيني، القدس، سنة ١٩١٨.
المصدر: أرشيف خليل السكاكيني.

ولم يعن انخراط خليل في "حزب الصعاليك" العزوف عن السياسة كما يمكن أن يُستشفّ من العنوان، وإنما مثّل انعكاساً لشخصيتين متباينتين. فمن ناحية هنالك التزام بالنضال اليومي العام، ومن ناحية أُخرى هنالك التوجه لاكتشاف آفاق جديدة في الفضاء الثقافي الرحب في فلسطين العثمانية المتأخرة. وفيما يتعلق بالشق الأول فإننا نعلم أن السكاكيني التزم الارتباط بحزب سياسي واحد هو حزب "الاتحاد والترقي"، الذي دعا إلى سياسة اللامركزية في الولايات العربية، والذي تم تجنيده له على يد الشيخ توفيق طبنجة وضابطين آخرين من الجيش التركي في خريف سنة 1908. وكان إسماعيل حسين همزة الوصل الرئيسية بينه وبين الحزب. وقدم السكاكيني وصفاً درامياً لكيفية قيامه، وهو معصوب العينين، بإجراء القسم بينما كانت يداه ممتدتين إلى إنجيل ومسدس محشو بالرصاص، بأنه يتعهد بالدفاع عن الوطن والدستور حتى الموت.[32]

ولا بد من أن يكون هذا القسَم جرى تحت الإكراه، إذ إننا نجد أن خليل التحق بعد أقل من شهرين بجمعية "الإخاء العربي" التي انضوى تحت لوائها أشخاص مثل موسى أفندي شفيق الخالدي، ونخلة زريق، وفيضي أفندي العلمي.[33] ولم تكن المجموعة بعيدة عن كونها فرعاً محلياً لحزب الاتحاد والترقي. وفي السنة نفسها ساهم السكاكيني في إنشاء "جمعية الإخاء الأورثوذكسي" التي خصها بجل اهتماماته خلال السنين اللاحقة. وأبدى اهتماماً فائقاً بتوثيق علاقاته بالطائفة الأورثوذكسية، والمساهمة في حملة تعريب الكنيسة. وهذه الحملة لم تكن ذات علاقة بالدين بقدر ما أثارت مسألة التخلص من الهيمنة الكنسية اليونانية. ويذكر عنه قوله إنه "إذا كانت الطائفة [الأورثوذكسية] ترمي الآن إلى طلب حقوقها من أخوية القبر المقدس فإني ساع منذ الآن إلى غاية أبعد من ذلك وهي طرد هذه الأخوية من البلاد وتطهير الكرسي الأروشليمي من مفاسدهم وآثارهم. غايتي التي أسعى إليها هي خلع نير اليونان إذ لا حق لهم في الرئاسة لا كنسياً ولا سياسياً ولا أدبياً."[34]

وتشابك هذا الصراع من أجل تعريب هوية الطائفة الأورثوذكسية في سياق إطار أوسع من الوطنية التي ضمت حلقة أوسع من المعارف من مسلمين، وأحياناً من اليهود، إضافة إلى البعد الإنساني العام المتخطي للجوانب القومية، والذي نال في النهاية الأولوية ضمن سلم الانتماءات الفكرية. وبذلك احتلت مجموعة الصعاليك مكان الأولوية في اهتمامات السكاكيني.

في سنة 1925 نشر السكاكيني "فرمان الصعاليك" الذي تضمن 18 مقالاً وملحقاً واحداً.[35]

---

(32) "كذا أنا يا دنيا..."، مصدر سبق ذكره، ص 43. وعن العلاقة بإسماعيل حسين راجع: المصدر نفسه، ص 46 – 47.

(33) المصدر نفسه، ص 48.

(34) المصدر نفسه، ص 39 – 40.

(35) خليل السكاكيني، "فرمان الصعاليك"، القدس، 7 تموز/يوليو 1925، نُشر في: السكاكيني، "ما تيسر"، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص 84. ويعبر السكاكيني هنا عن رفضه استخدام صيغة الجماعة لأي كان مهما علا شأنه ومركزه. فالإصرار على حفظ الألقاب كلياً والتخاطب بصيغة "أنت" لا بد من أنهما كانا خطوة ثورية تتطلب الكثير من الشجاعة.

وعكس الفرمان بصورة جلية قناعته في شأن فلسفة السرور المستمدة من علاقاته السابقة بفرح أنطون في أثناء وجوده في نيويورك خلال سنتي 1907 و1908. وأفلح في المزج بين تفسيره المبسط لمفهوم القوة لدى نيتشه وبين نزعته الخاصة نحو تذوّق الملذات.[36] ومن خلال الرسالة التي بعث بها إلى ابنه سريّ من معتقله في دمشق، ظهرت فلسفته المتمثلة في الرضوخ للقوة السلطوية حين ذكر أن "الأقوياء هم الذين يرثون الأرض"، إضافة إلى أن "حق القوي حق صريح ثابت يستند إلى عقل صحيح وجسد صحيح." وكي لا يساء فهمه كداروينى اجتماعي، أضاف قائلاً: "فإذا قلنا يجب أن يكون الإنسان قوياً فإنما نعني تلك القوة الأصلية التي خُلقنا عليها."[37]

ومع اكتمال عملية صوغ الفرمان بعد سبعة أعوام من الشروع فيها، طرأ تغيير واضح في الموقف؛ إذ ورد بصورة لا تحتمل التأويل أن "جميع الرجال والنساء هم أعضاء في هذا الحزب شاؤوا أم أبوا إلاّ إذا انتهكوا مبادئه."

> *كل الناس من رجال ونساء أعضاء في هذا الحزب رضوا أم لم يرضوا، إلاّ من خرج عن مبادئه [....]. لا رئيس لهذا الحزب، ولا سكرتير، ولا أمين صندوق، ولا ناد، يتلاقى أعضاؤه في الحياة فيتعارفون فيتآلفون، وكل صعلوك للصعلوك نسيب.*[38] *[....] مبدأ هذا الحزب الصراحة، يبتسم للحق ويؤيده، ويعبس للباطل ويقاومه. لا يستعمل هذا الحزب في الخطاب إلاّ ضمائر الخطاب: أنت أنتما أنتم، أنت أنتما أنتن، ولا يستعمل في الغيبة إلاّ ضمائر الغيبة: هو هما هم، هي هما هن، ولا يستعمل في التكلم إلاّ ضميري التكلم: أنا نحن، المفرد للمفرد، والمثنى للمثنى، والجمع للجمع، فلا جناب، ولا حضرة، ولا محسوب ولا خادم مطيع.*[39] *[....] الحزب كسول فساعات العمل عنده لا تزيد عن ساعتين، ولا يمر عيد ولو لقديس مجهول إلاّ عطل وانصرف إلى الأكل والشرب أو اللهو ولو مات جوعاً، وهو في ذلك على مذهب "يحيى بن خالد" فقد أوصى ولده بقوله: "يا بني لا*

---

(36) أعد السكاكيني، خلال فترة اعتقاله في دمشق، رسالة مطولة موجهة إلى ابنه حديث الولادة سريّ، ولم ترسل هذه الرسالة. وقد ورد فيها:

القوة! القوة! هذا هو التعليم الجديد الذي يجب أن نبشر به.

من الناس من يقول إن القوة للحق، ومنهم من يقول إن الحق للقوة. وإذا تأملنا قليلاً رأينا أن الحق يجب أن يكون للقوة بمعنى أن القوي في جسمه وعقله ونفسه أحق من الضعيف في جسمه وعقله ونفسه بالوجود. الأقوياء هم الذين يرثون الأرض. حق القوي حق صريح ثابت يستند إلى عقل صحيح وجسد صحيح ومبدأ صحيح، وأمّا حق الضعيف فهو حق مزعوم باطل يستند إلى عقل ضعيف ومبادئ منحطة وشعور مختل وجسد سقيم. العالم مع هؤلاء الضعفاء ليس إلاّ مستشفى مرضى أو مارستان مجانين كما قال الفيلسوف الألماني نيتشه صاحب فلسفة القوة في هذا العصر.

أحب من سريّ أن يتشبع من هذه الفلسفة وأن يكون من الأقوياء في جسده وعقله ونفسه إن شاء الله.

("كذا أنا يا دنيا..."، مصدر سبق ذكره، ص 117).

(37) المصدر نفسه، ص 116، 117.

(38) السكاكيني، "ما تيسر"، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص 86.

(39) المصدر نفسه، ص 83.

تغفل نصيبك من الكسل." (40) [....] الأسود في نظر هذا الحزب أسود، والأبيض أبيض، والأعوج أعوج، والمستقيم مستقيم، والحسن حسن، والقبيح قبيح، والصقر صقر، والبغاث بغاث، وقس الفصاحة قسها، وباقل الفهاهة باقلها. الحزب نقاد لا يراعي في المنام خليلاً، ولا يجامل في الحق أحداً، الشبهة عنده دليل، والشك يقين، فمن أغرى الحزب به فلا يلم إلاّ نفسه.(41)

من سيرثني على عرش إمارة البطالة

حمل مزيج المساواة الشعبوية والأخلاقيات الساخرة، بحسب ما ورد في "فرمان" الحزب، في ثناياه انعكاساً لنزعة تميل إلى النرجسية ضمن شخصية السكاكيني، والتي وجدت متنفساً وتلاءمت مع انتشار ثقافة المقاهي والحركة الفكرية كما اتسمت بها ثقافات المتوسط. وكان الالتقاء بين المقاهي الشعبية والسكاكيني على غرار مقولة وافق شن طبقة. وعاود التطرق إلى الحديث عن فلسفة السرور أكثر من مرة في مذكراته التي أخذ في تدوينها سنة 1907، وواصل كتابتها في إثر عودته إلى القدس:

أُشفق على أولئك الذين لا يعرفون السرور في حياتهم، لا يستقبلون الأيام إلاّ بوجوه مقطبة وصدور منقبضة وأخلاق ضيقة، لا يلتذون بشيء بل دأبهم الانتقاد والاعتراض والاستهجان والاستقباح [....] ولا دواء لهذا المرض مهما كان سببه سوى اتباع أسلوبي في الحياة [....]

أقوم من النوم فأحس أني تلذذت في نومي، وألعب فأحس أنني تلذذت بألعابي، وأستحم فأحس أن السعادة كلها في الاستحمام بالماء البارد، وآكل فأتلذذ في أكلي ولو كان خبزاً يابساً، وأدخن بأركيلتي فأحسب السعادة في التدخين، وأقرأ أو أكتب فألتذ فيما أقرأ أو فيما أكتب، أمشي فألتذ بالمشي، وأجلس إلى أصدقائي فألتذ بالجلوس إليهم، وأجتمع بالناس في الليل والنهار فألتذ بالاجتماع بهم، أقابل الصعوبات فألتذ في مقاومتها والتغلب عليها.(42)

منح الإبعاد القسري للسكاكيني إلى دمشق (1917 – 1918) فرصة سانحة له لتطوير مفهومه للسرور بصورة تميل إلى النرجسية، وترافق ذلك مع اغترابه عن مسألة العقيدة الدينية. وليس هنالك أدنى شك في أن ذلك كان مرتبطاً بخلافه العميق مع الكنيسة الأورثوذكسية التي لم تتوان عن محاولة منع عقد خطوبته على محبوبته سلطانة التي أصبحت زوجته فيما بعد. وفي يومية ذات دلالة في إبان وجوده في دمشق قام بتدوين المحادثة التالية التي جرت مع أحد طلبته الألمان، وهو المبشر السيد بيرن:

كلانا مبشّران، هو يبشر بالمسيح وأنا أبشر بأسلوبي. يقول: "ألا تصلي؟" فأقول "لا". يقول: "ألا تستغفر الله عن زلاتك؟" فأقول: "لا". يقول: "ألا تشكر الله على

(40) المصدر نفسه، ص 85.

(41) المصدر نفسه، ص 84 – 85.

(42) "كذا أنا يا دنيا..."، مصدر سبق ذكره، ص 141.

إحسانه إليك؟" فأقول "لا". يقول: "ألا تعتمد على الله؟" فأقول "لا"، إلى آخر ما هنالك مما يتلقاه بالاستغراب، ولعله يشفق عليّ أن يكون مصيري إلى جهنم.(43)

واستمد السكاكيني فلسفة السرور من مسكويه، في كتابه "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق"، إذ ورد "أن الحزن ليس بضروري ولا طبيعي، فيجب أن نقبل على الحياة ونبتهج بها ونحرض على إقامة الليالي والاجتماعات الأنيسة اللطيفة، يجب أن نعنى بالموسيقى والغناء، وإذا عرضت المصائب فيجب أن نتلقاها بشجاعة وصبر وطمأنينة ولا ندع الحزن يأكلنا."(44) ومن خلال هذه الفلسفة استقى خليل نمطاً سلوكياً تضمّن إجراء تمارين رياضية شاقة لمدة ساعة كل صباح، والاستحمام بالماء البارد مرتين يومياً، وتناول الأطعمة النباتية، وأخذ قسط من الراحة من خلال القيلولة بعد تناول الطعام ظهراً، إضافة إلى الأنشطة الاجتماعية في الأماكن العامة.(45) وفوق كل ذلك دعا السكاكيني إلى اعتماد نمط منهجي للسرور والحبور، إذ ذكر:

اكتفت الشرائع القديمة بتخصيص يوم واحد للراحة في الأسبوع، أي حددت أوقات العمل بالأيام، وأمّا أنا فأقول: إن يوماً واحداً للراحة في الأسبوع لا يكفي، بل لا غنى عن يومين على الأقل في الأسبوع، ونضيف إليهما يوماً ثالثاً مرة كل شهر. ثم لا بد في كل عمل مهما كان نوعه من ثلاث عطل: أسبوعان في أول السنة، وأسبوعان في أواخر الربيع، وشهران ونصف في الصيف، على حساب اصطلاح المدارس. وأمّا أوقات العمل فيجب أن تحدد بالساعات لا بالأيام فلا يجوز أن يتجاوز العمل كل يوم الأربع ساعات، ويجب أن يستريح العامل عشر دقائق بين الساعة والأُخرى حسب اصطلاح المدارس الجديد.(46)

وبدلاً من الحج ذي الطابع الديني، دعا السكاكيني إلى السياحة الثقافية ناصحاً:

كان الإسرائيليون يحجون إلى أورشليم مرة في السنة، ولا يزال الحج فرضاً على ما استطاع إليه سبيلاً من المسلمين ولو مرة في العمر، وكان المسيحيون يحجون إلى بيت المقدس بقصد التبرك. وأمّا أنا فأقول: يجب على الإنسان أن يطوف حول الأرض إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً وإلاّ فيكتفي أن يحج إلى البلاد الراقية أو يكفي أن يذهب إلى أقرب مرفأ فيركب البحر ويسافر إلى حيث تذهب به الباخرة ولو استغرق سفره الشهرين أو الثلاثة فإن ذلك يكسبه صحة ويجدد شبابه ويوسع مداركه ويعرفه بالعالم.(47)

وسنحت الفرصة للسكاكيني أن يطبق فلسفته هذه في دمشق بصحبة المبعدين المقدسيين. وفي 10 كانون الثاني/يناير 1918، تم إطلاقه بأمر من جمال باشا الصغير، وتمكن من إيجاد مكان إقامة له في حي القصبة بينما كانت قوات الأمير فيصل تتقدم للسيطرة على المدينة من جهة الجنوب.

---

(43) المصدر نفسه، ص 153 – 154.
(44) المصدر نفسه، ص 144.
(45) المصدر نفسه، ص 144 – 145.
(46) المصدر نفسه، ص 144.
(47) المصدر نفسه.

ومن جملة أعضاء شلته حينذاك نذكر: موسى العلمي؛ توفيق جوهرية (شقيق واصف الذي كان يخدم في الجيش العثماني)؛ أحمد سامح الخالدي؛ رستم باي حيدر؛ د. توفيق كنعان؛ نخلة زريق. وخلال المساء كانت الشلة تجتمع في مقهى الكمال على نهر بردى.

لم تدم حياة قهوة الصعاليك طويلاً خلال فترة الانتداب، إذ حدث تراجع في دور المقاهي الأدبية في القدس، وكذلك في بقية أرجاء فلسطين. وفي هذا السياق يذكر محمد عزة دروزة عن المقاهي المنتشرة في نابلس، خلال الفترة 1907 – 1914، أنها كانت مراكز تجمع للرجال ممن يدخنون النرجيلة ويلعبون الورق أو الدومينو بينما يحتسون القهوة والشاي. أمّا الأنشطة الاجتماعية الأكثر حيوية، فكانت تجري في الدواوين حيث تسرد الحكايات وتدور النقاشات السياسية.[48] وكما كان الحال عليه في القدس وُجدت في مقاهي نابلس عروض قره قوز للكبار، وصندوق العجب للصغار.[49] وبعكس ما كان الحال عليه في بيروت ودمشق والقاهرة، حيث انتشرت المقاهي الأدبية وارتبط اسمها بحلقات متنافسة، فإن هذا الدور اقتصر في فلسطين على النوادي الثقافية والمذهبية خلال حقبة الانتداب. من هذه الزاوية فإن ظاهرة قهوة الصعاليك كانت حالة استثنائية في مدينة ضيقة الأفق مثل القدس. والفضل الرئيسي في ظهورها وأفولها يعود، في الأساس، إلى قوة شخصية خليل السكاكيني وقدرته على إيجاد الفضاء الثقافي على غرار ما فعله في مضمار النظام التعليمي الرائد. ففي كلتا الحالتين اعتمد على المبادرة والمثابرة. وفي سنة 1926 استعاد السكاكيني وظيفته كمفتش عام للتربية في فلسطين. إذ إنه خلال ولاية هربرت صاموئيل، كمندوب سام، كان رفض الخدمة في السلك العام احتجاجاً على تحيز صاموئيل للصهيونيين. ومراعاة للمركز الذي تطلبته الوظيفة الجديدة كان عليه أن ينأى بنفسه عن "حزب الصعاليك"، وأصبحت زياراته لقهوة المختار نادرة. وتعقيباً على ذلك كتب إلى صديق في مصر شاكياً وصول عصر البطالة إلى عهد النهاية:

(48) "مذكرات محمد عزة دروزة: سجل حافل بمسيرة الحركة العربية والقضية الفلسطينية" (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993)، المجلد الأول، ص 106 – 107.

(49) المصدر نفسه، ص 108.

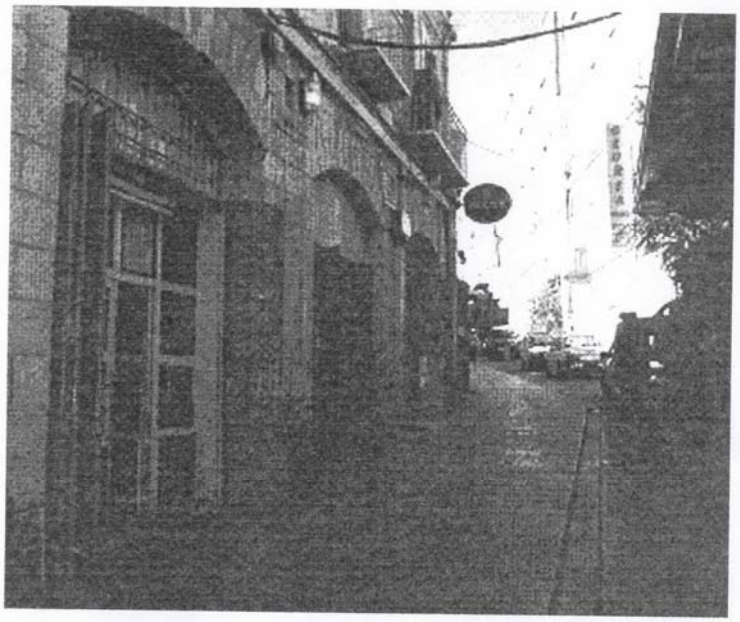

مدخل مقهى الصعاليك في باب الخليل، في البلدة القديمة من القدس اليوم. وقد عادت القهوة اليوم إلى اسمها القديم، مقهى المختار.
المصدر: الكاتب.

سيكون الغد آخر عهدي بعصر البطالة وإنه لعصر لو تعلم جميل.. ستقفر غداً قهوة الصعاليك ستتقوض مجالسنا التي كنا نجتمع فيها كأنجم الثريا سيسأل الإخوان.. إخوان الصفا عني فلا يجدونني. لم أكن أخرج من بيتي قبل أن ألعب وأستحم وآكل وأقرأ وأكتب وأغني وأدخن وأمّا اليوم فسأخرج مع البازي عليه سواد. كنت إذا مشيت في الطريق أعرج يمنة ويسرة لا ألقى أحداً إلاّ صافحته وحييته وحادثته وباحثته. وأمّا بعد اليوم فسأمر خطفاً لا أنوي على شيء وقد لا أحيي أحداً ولو من بعيد. [....] ما أحوج البلاد إلى من يقف نفسه على البطالة.[50]

ولم يكن رحيل أمير البطالة عن قهوة الصعاليك السبب الوحيد في أفول نجم المقهى. فهنالك عوامل مرتبطة بانتقال معظم الصحف والمجلات إلى يافا وحيفا خلال العشرينات. إضافة إلى ذلك، انهمكت الحلقات الفكرية المقدسية في الانخراط في الأحزاب السياسية الوطنية أو في السياسات البلدية في المدينة. وقد واصلت ثقافة المقاهي الانتشار لكن أغلبيتها باتت مراكز للقاءات الاجتماعية والعروض الموسيقية بعيداً عن دورها كمنتديات أدبية.■

(50) كما ورد في: حداد، مصدر سبق ذكره، ص 71.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf